غـــرام أليـــم

هناء ثروت عبداللطيف ـ مصر

اليوم خِطبتي على آسر، الذي جمعتني معه ذكريات طفولتنا وأيامنا السعيدة.

استيقظتُ مبكرًا،وقلبي يملؤه الفرح..كنتُ كالطير المحلق بالسماء،لمْ أنتبه لمَ حولي.... وبينما أنا غارقة ببحر سعادتي..تلقيتُ رسالة نصية على هاتفي المحمول،كادت أن تطير عقلي من شدة قسوتها؛بل من ذهولي من راسلها.

كانت تنص على

"لن أستطيع الإتيان إليكِ اليوم،أنا ذاهب لبلد آخر..لا تقومي بالبحث عليّ، إلى اللقاء حبيبتي"

سقطتُ أرضًا، كانت قدميّ لم تستطع حملي، جسدي يرتجف وصوت بكائي طغى المكان كله..وعقبه صرخة قوية.

ما هذا الهراء؟ أيمزح معي بغلظة كعادته! أم قرر الابتعاد هكذا دون أسباب جلية؟ ظللتُ حائرة..حتى انتبهتُ لصوت هاتفي يدق. ماذا هناك! إنه رقم آسر..

استجمعتُ قواي وأجبت عليه..

لكن لمْ يكن هو،تحدث إليّ رجل وأخبرني:

"آلو،معكِ مستشفى...، نُقل إلينا الشاب آسر إثر تعرضه لحادث قوي..نرجو منكم الإتيان إلينا.."

أسرعتُ في عجالة،على جهل بمَ يدور،كيف حدث هذا! إلى أين كان ذاهب؟

وصلت إلى المستشفى، وسألت عنه الاستقبال...أخبروني أن الأمر على ما يرام..هدأت روحي وبدأ قلبي بانتظام دقاته.

قابلتُ الطبيب المعالج له..وتحدث إليّ بصوت يملؤه الحزن والأسى:

"أأنتِ على صلة بالمريض آسر؟"

فأجبته: "نعم،أنا خطيبته."

أكمل حديثه وهو ينظر إلى الأرض: "آسر مريض بسرطان الدم"

سقطت دموعي بغزارة..ونظرت خلفي وجدته نائمًا..حوله بعض الأجهزة الطبية..لتساعده على التنفس.

دلفتُ إلى الغرفة..أمسكتُ بيده..ما إن شعر بأنفاسي حتى فتح عيناه.

بدأ حديثه إليّ، ويده تلامس وجهي: "لا تبكي،أظنكِ الآن علمتي بمرضي..كنتُ أتمنى ألا أسبب لكِ هذا الألم الظاهر بعينيكِ..ليته بعينيكِ فقط،إنه يأكل قلبكِ قرابة الوصول إلى روحكِ..أنا آسف إليكِ."

زاد بكائي وارتفع حد السماء السابعة..وقلتُ له: "كيف لكَ أن تتحمل وحدكَ..ألم أكن أمك،صديقة طفولتك،رفيقة دربك،ابنتك وحبيبتك؟..أتظن إني قادرة على الإكمال دونك! كيف لكَ أن تتركني بمنتصف الطريق بمفردي؟ أهذا ما

وعدتني به؟! ستشفى لأجلي..أنا وحيدة بدونك."

لا أعلم ماذا بيدي لأفعله..لكني أقسمتْ ألا أتركه وأبقى جانبه مهما مر بنا.

كان يتعمد خلق أوقات سعيدة لي برفقته،عوضًا عن تركه لي مهما طال الوقت..كما هو راسخ بذهنه.

لكننا لم نستسلم..فبعد مرور سنة واحدة من علمنا بمرضه،أثناء زيارة للطبيب المعالج له. أخبرنا حينها بأنه شفي تمامًا كأن لم يمسسه ضر.

تعجب آسر..كيف هذا؟ رغم رفضي التام أخذ جرعات الكيماوي الخاصة بي!

حقًا إن الله رحيم.

كنا قد تزوجنا، لكن لم نرزق بأطفال.. أثناء أمسية نقضيها أمام التلفاز،تحدثت إليه: "آسر،أريد التحدث معك بأمر هام"

فأجابني باهتمام ومغازلة:

- "أيوجد أمر هام أكثر من وجودكِ معي صغيرتي؟"
- "نعم،هناك ما هو أهم،وهو إنجابك لطفل"

أدار وجهه للجانب الآخر وأخذ نفس عميق:

- "كم تحدثنا في هذا الأمر،وأخبرتك مرارًا بأني أحبكِ ولا أستطيع تركِكِ ولا الزواج بأخرى من أجل الإنجاب؟"

- "لكن..هذا حقك.."

ضمني إلى صدره بحنو بالغ وكأنه يذيب كل آلامي المحمل بها قلبي..تسللت روحي إليه كطفل أزعج أمه ولم يجد سواها يحتمي بها.

وقال لي: "حقي قد أخذته كاملًا منذ طفولتي...وهو أنتِ"

بقيت أدعو الله ليلًا ونهارًا آملة برحمته..وأنا ممتلئة باليقين، مرت الأيام يعقبها أسابيع مكونة شهور وسنوات، شعرت بالتعب بعض الشيء..لم أنتبه للأمر وقد ظننت أنها مجرد نزلة معوية وستنقضي بمرور الوقت لكني لم أتحسن والأمر يزداد سوءًا..قمنا بزيارة الطبيب،وكان رده بأني حامل..

بكيتُ كثيرًا من فرحة ما سمعت..وحمدتُ الله على استجابة دعواتي.

كان آسر يعتني بي كثيرًا،ويقضي معظم أوقاته برفقتي..دائمًا يخبرني بحبه لي.

مضت تسعة أشهر ووضعتُ مولودتي...نعم إنها بنت جميلة تحمل ملامح آسر جميعها...لكني لم أكن على علم بأنها من يبقى لي منه..

فبعد ولادتها بأسبوع توفي آسر إثر سكتة قلبية..

غاب عني بجسده،لكنه باقٍ بداخلي.

كلما اشتقتُ إليه نظرتُ بوجه صغيرتنا وحدثته كثيرًا..

غبتُ وتركت لي "غرام أليم"